مجلة الدراسات الإسلامية، المجلد 28، العدد (1)، ص ص 217 - 242، الرياض (2016م/ 1437هـ)

حقيقة الهوية الإسلامية ومظاهرها في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية «قراءة ثقافية للكتاب»

مها بنت جريس الجريس*

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

(قدم للنشر في 01/ 07/ 1436هـ؛ وقبل للنشر في 09/ 08/ 1436هـ)

المستخلص: يمثل هذا البحث توضيحاً للجانب الثقافي من الكتاب العلمي الشهير: «اقتضاء الصراط المستقيم، لمخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهو عرضٌ لمسألة الهوية التي تناولها الشيخ من النواحي العقدية والأحكام الفقهية؛ ليتم تقديمها من خلال هذا البحث بصياغة فكرية. وقد التزمت منهج التتبع والاستقراء في محاولة لنظم مسائل الكتاب في تقسيمات جامعة تبرز معنى الهوية، وحقيقتها، ومظاهرها عند شيخ الإسلام. وقد ظهر أن الهوية والتميز - لدى شيخ الإسلام - تتحقق بلزوم قاعدة المخالفة التي يدور حولها موضوع الكتاب وعنوانه. وقد ضبطها بضوابط عديدة، ثم حدد مظاهر الهوية لتشمل المظاهر الفكرية المتمثلة في المعتقدات والعبادات، والمظاهر الاجتماعية المتمثلة في الهيئات والعادات، والمظاهر الحضارية المتمثلة في اللغة والأعياد والرموز والشعارات. وقد تناول الشيخ ذلك كله بمنهجية فريدة تبرز عناية السلف بموضوع الهوية، وتحديد خصائصها التي تميز هذه الأمة عن غيرها من الأمم، وبما يتناسب مع خيريتها وشهادتها ووسطيتها بين الناس.

الكلمات المفتاحية: الهوية، شيخ الإسلام، ابن تيمية، الصراط المستقيم، المخالفة، التشبه، الأعياد.

Islamic Identity: Its Reality and Traits in Ibn-Taimiya's Book *Iqtidhaa' Assiraat Almustaqeem li Mukhaalafat Ass-haab Al-Jaheem*

Maha Jerais Al-Jerais*

Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University

(Received 20/04/2015; accepted for publication 27/05/2015.)

Abstract: This paper studies the cultural aspect of Ibn-Taymiyah's well known book *Iqtidhaa' Assiraat Almustaqeem li Mukhaalafat Ass-haab Al-Jaheem* (*Pursuit of the Straight Path Requires Unfollowing the Hellfire People*). The book deals with the issue of identity from the belief and jurisprudence perspectives, while the research looks into Ibn-Taymiyah's argument from an intellectual angle. The research adopts an inductive approach in tracing and classifying the issues of the book into broad categories that show Ibn-Taymiyah's concept, reality and traits of identity. Obviously, Ibn-Taymiyah considers the distinction of Islamic identity to lie in unfollowing or not emulating the Hellfire people. He defines identity guidelines and traits. These include: intellectual features, such as beliefs and acts of worship; social features, such as looks and habits; and cultural features, such as language, festivities, symbols and slogans. The book's unique methodology reflects the meticulousness with which the *salaf* approached the issue of identity, which distinguishes the Muslim nation in terms of goodness, witness and *wassatiyyah* (excellence, truthfulness and usefulness).

Keywords: identity, Shaikh Al-Islam, Ibn-Taimiya, straight path, imitation / emulation, national festivities, national character.

(*) أستاذ مساعد، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
الرياض، المملكة العربية السعودية، ص.ب (9047) الرمز (11413)

(*) Assistant Professor, College of Shari'ah, Imam Muhammad Bin Saud Islamic University.
Riyadh, KSA, p.o box:(9047), Postal Code:(11413)

البريد الإلكتروني: *e-mail: maha.aljerais@gmail.com*

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد ميز الله الأمة الإسلامية بمميزات عظيمة، وخصها بخصائص كثيرة؛ إذ جعلها وسطاً في الدين، وبوأها الشهادة على الناس، وألزمها صراطه المستقيم، ومخالفة المغضوب عليهم، والضالين، وأكمل عليها الفضل بجعلها أول الأمم دخولاً للجنة، وأكثر أهلها من سائر الأمم. وهذا الصراط المستقيم هو المحدد لحقيقة هوية الأمة وجوهر تميزها، وسر خيريتها، ولا بد لهذه الهوية من صبغة يصطبغ بها مظهر الأمة العام في شعائرها وشعاراتها وأعيادها وعاداتها وعباداتها، ولئن استفاضت النصوص الشرعية من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ترفدها سيرة المصطفى ﷺ، وسيرة خلفائه الراشدين المقتدين بهديه الملتزمين بكتاب الله، وسنة رسوله في شؤونهم كافة، ومن تبعهم بإحسان من علماء الأمة وعامتها، لبيان معنى هذا الصراط المستقيم؛ فإن شيخ الإسلام ابن تيمية قد عني عنايةً خاصة بمعنى الصراط المستقيم، وحقيقته، وما يقتضي لزومه من مخالفة الأمم الأخرى، وعمل على تجلية هذا الأصل في كتابه المشهور: «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم» الذي كتب الله له ولمؤلفه القبول في الأمة، فصار مرجعاً أصيلاً في هذا الباب، كما اعتنى به كثيرٌ من العلماء تحقيقاً واختصاراً وشرحاً وتعليقا. ومع هذه الجهود التي قربت هذا السفر العظيم لطلبة العلم فلا يزال بحاجة ماسة إلى دراسة ثقافية تفيد من مضامينه الثقافية التي تناولها فيما بعد رواد الثقافة بمفاهيم ومصطلحات جديدة، مثل: «الهيمنة الثقافية، والممانعة الثقافية، ومكونات الهوية وعناصرها، والاستلاب الثقافي، وكذا الاختراق الثقافي، والقابلية للاستهواء» وغيرها مما سيرد - بإذن الله - في ثنايا البحث.

ويأتي هذا البحث لبيان معنى الهوية، وحقيقتها، ومظاهرها، ومقتضياتها لدى شيخ الإسلام من خلال هذا الكتاب، بقراءة تواكب السياق الفكري السائد في هذا العصر، الذي يعنى ببناء الأفق الثقافي، ويتجاوز دائرة التخصص العلمي الذي ظل الكتاب حبيسه - غالباً - مما جعل بعض القراء من غير المتخصصين، لا يستطيع الوقوف على المعاني العميقة التي يكتنزها الكتاب تأصيلاً وشرحاً وتوضيحاً وتحريراً، التي اضطلع بها شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان له قصب السبق إليها؛ بيد أنها بحاجة لامتداد ثقافي مفاهيمي لمسائلها العقدية والفقهية بلغة عصرية، لا تخل بالمضمون، وإنما تقترب من الألفاظ المتداولة بين المثقفين في هذا الزمن بما يظهر سبق علماء السلف لكثير من المعاني الحادثة في علم النفس، والاجتماع، والثقافة.

أهمية الموضوع:

تعرضت الأمة الإسلامية للغزو الفكري والهجمات الشرسة على مكونات هويتها منذ زمنٍ بعيد، ولكن الأمر ازداد حدةً وضراوةً بعد أن هبّت رياح العولمة، وتمخضت عن النظام العالمي الجديد الذي يقرر الهيمنة الثقافية، ويفرض واقعها المزيف، وكأنه حتمية لا مناص منها تحت مسمى صراع الثقافات، ونهاية التاريخ. وسرعان ما تفشّى التقليد، وبدت علامات التبعية ومشاعر الاستسلام، وراجت دعاوى مغرضة تعمل على محو هوية الأمة الإسلامية، وتسعى للقضاء على سيادتها.

كما تسوق تلك الدعاوى المضللة، ويُروج لها عبر قنوات مختلفة ووسائل متنوعة، ومن أخطرها تلك المصطلحات الموهمة التي تسكُّها السياسة، وينشرها الإعلام على نطاقٍ واسع؛ مثل: «التعايش السلمي، وقبول الآخر، وحرية الرأي» وبات الحديث عن تميز الأمة الإسلامية وسيادتها أمراً يتجنبه المفكرون والمعنيون بالحراك الثقافي في العالم العربي بخاصة، والعالم الإسلامي بعامة، وكأنه من بواعث الشقاق ومسببات الخلاف؛ لذلك سادت الثقافة الغربية بسلطة السياسة، وبزخم الدعاية والإعلام في أساليب المعيشة وفي أنماط التفكير ولغة التعبير بما غيَّب الهوية الحقة، والشخصية الذاتية للأجيال المسلمة الجديدة. وبالنظر لهذا التحدي الماثل وما يعنيه من استلاب الذات والهوية؛ فإن من واجب المعنيين بالفكر والثقافة محاربة هذا الفكر العولمي الأحادي والثقافة الاستعلائية، بالعلم الشرعي المؤصل لمفاهيم الثقافة الإسلامية استناداً لمسائل العقيدة الصحيحة والأحكام الفقهية المقررة، ومقاصد الشريعة لإحياء معاني العزة في الأمة، وتأصيل الفكر الإسلامي، وتجلية مفهوم المخالفة بمعناه الصحيح الذي يعبر عن الأَنَفَة الثقافية، والتميز الحق المشروع، والشهادة على العالمين، لا على سبيل العلو والقهر والازدراء للآخرين، بل على سبيل التمسك بمكانة الأمة والتشبث بمنزلتها التي حباها الله إياها منةً واصطفاء.

سبب اختيار الموضوع:

وقع اختيار هذا الموضوع لأسبابٍ عدة أجملها في الآتي:

أولاً: أهمية هذا الموضوع المشار إليها آنفاً من حيث صلته بحقيقة الهوية ومظاهرها.

ثانياً: كون شيخ الإسلام ابن تيمية بسط الحديث في مسائله العقدية والفقهية في دائرة هوية الفرد بخاصة والأمة بعامة.

ثالثاً: مكانة هذا الكتاب، ومكانة مؤلفه العلمية والفكرية قديماً وحديثاً.

رابعاً: إظهار الجانب الثقافي وتجليته؛ إذ إن الجانب الثقافي فيه مستترٌ - إلى حدٍ ما - خلف تلك المسائل، وكامنٌ في مقاصدها الشرعية، ومآلاتها الكفيلة

بتحقيق الهوية وإظهارها.

أهداف البحث:

1 – إبراز معنى الهوية وحقيقتها، وربطها بقاعدة المخالفة التي ضبطها شيخ الإسلام بالنصوص والتطبيقات.

2 – تحديد مظاهر الهوية الإسلامية على المستوى الفردي والحضاري.

3 – بيان سبق علماء السلف في بيان كثير من مصطلحات الثقافة المعاصرة، وتأصيلها من أقوالهم، وفي ذلك ردّ الفضل لأهله من علمائنا المسلمين، وربط علم الثقافة بمقولاتهم القيمة.

4 – تقريب فقه السلف وخدمة آرائهم بصياغة ثقافية تناسب الطرح الفكري المعاصر.

5 – إبراز بعض التطبيقات المعاصرة لكثير من مسائل الكتاب.

منهج البحث:

هذا البحث ليس اختصاراً ولا شرحاً، ولكنه استجلاءٌ للجانب الثقافي لهذا الكتاب العقدي الفقهي الأصيل، من خلال عرض مسائله العقدية وأحكامه الفقهية والآراء الواردة حولها بصياغة حديثة، وقد التزمت في هذا العرض منهج التتبع والاستقراء، حيث تتبعت مسائل الكتاب في محاولة لنظمها في تقسيمات جامعة، يتم من خلالها إبراز معنى الهوية، وحقيقتها لدى شيخ الإسلام ابن تيمية، ومظاهرها وما يخل بها. وإني في هذه الوريقات لا أدعي الكمال ولا الحصر، بل حسبي من ذلك المقاربة والإسهام – بما أسأل الله أن يعينني عليه – من بناء أفقٍ ثقافي لتلك المسائل العقدية والفقهية التي بسطها شيخ الإسلام بُغية التكامل المعرفي، والاضطلاع بالجانب الثقافي في ذلك، والطمع في التصويب والتسديد من أهل العلم والنظر من ذوي الخبرة والاختصاص، ومتابعة هدي الأوائل من أهل العلم بقراءة كتب السلف، وإبراز كنوزها، واستخراج فوائدها، وخدمة التراث الفكري الضخم لهذا الإمام العلم من أئمة الإسلام.

الدراسات السابقة:

هذا البحث هو استقراءٌ لما ذكره شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله عن الهوية في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم»، وهو قراءةٌ ثقافية للكتاب لإبراز ما فيه من مضامين ثقافية تتعلق بالهوية؛ ولهذا فقد لا يدخل في سياق الدراسات السابقة لهذا البحث من حيث الموضوع إلا ما يتعلق منها بهذا الكتاب والتحقيقات التي خدمته من الباحثين والاختصارات التي جاءت كالتالي:

أولاً: التحقيقات:

1 – تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي في مجلد واحد، طبعة دار الكتب العلمية الأولى 1407هـ.

2 – تحقيق الشيخ الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل – حفظه الله – وقد جاء في مجلدين، وطبع عدة طبعات، وكان رسالته للدكتوراه بإشراف الدكتور الشيخ صالح بن فوزان الفوزان، وقد أجيزت من قبل لجنة المناقشة، والحكم المكونة من المشرف؛ والشيخ زيد ابن عبد العزيز الفياض الأستاذ بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بكلية أصول الدين بالرياض؛ والدكتور جعفر شيخ إدريس، الأستاذ المشارك بالمعهد العالي للدعوة الإسلامية بالرياض حينها.

ثانياً: المختصرات:

1 – المنهج القويم في اختصار اقتضاء الصراط المستقيم، لشيخ الإسلام ابن تيمية، للمؤلف: محمد بن علي البعلي الحنبلي، بتحقيق: علي العمران، ط مجمع الفقه الإسلامي، جدة، 1422هـ، في مجلد واحد.

2 – مختصر اقتضاء الصراط المستقيم. للمؤلف: وليد بن إدريس المنيسي، قدم له: معالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

3 – مختارات من اقتضاء الصراط المستقيم. لفضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله طبع دار الجوزي، في (63) صفحة.

4 – مختصر اقتضاء الصراط المستقيم للمحقق نفسه الشيخ ناصر بن عبد الكريم العقل، طبع دار إشبيليا، عام 1419هـ.

5 – مهذب اقتضاء الصراط المستقيم. للمؤلف: الدكتور عبد الرحمن الفريوائي، تقديم فضيلة الشيخ عبدالله الغنيمان.

6 – تهذيب اقتضاء الصراط المستقيم. للمؤلف: شحاتة محمد صقر، ط مكتبة دار العلوم. في (190) صفحة.

وبالنظر في هذه الدراسات يتضح أن البحث في هذا الكتاب بقراءة ثقافية لمضمونه مما لم يكتب فيه بحسب علمي، وأن العمل في هذا إنما يأتي تتميماً للفائدة وخدمة للكتاب.

تقسيمات البحث:

يتكون هذا البحث من مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، على النحو التالي:

* **المقدمة**، وتشمل: أهمية البحث وأهدافه، وتقسيمات البحث.
* **تمهيد**، وفيه: التعريف بالمؤلف، والكتاب، ومصطلح الهوية.
* **المبحث الأول: قاعدة المخالفة التي ضبط بها شيخ الإسلام معنى الهوية –في هذا الكتاب– وفيها سبعة ضوابط كالتالي:**

– الضابط الأول: أن المخالفة مقصودة لذاتها، وهي أصلٌ في الدين ومعنى الصراط المستقيم.

– الضابط الثاني: أن الإخبار بوقوع التشبه قدراً لا

يعارض وجوب التعبد بالمخالفة.

- الضابط الثالث: أن المخالفة لا تختص بالباطن دون الظاهر.
- الضابط الرابع: أن المخالفة لا تختص بأهل الكتاب.
- الضابط الخامس: أن المخالفة لا تعني العلو والاستكبار والفخر الجاهلي.
- الضابط السادس: أن المخالفة لا تعني العنت والمشقة ولا التشديد على النفس.
- الضابط السابع: أن المخالفة دائرةٌ بين الوجوب والاستحباب.

* **المبحث الثاني: مظاهر الهوية لدى شيخ الإسلام بن تيمية - في هذا الكتاب - وفيه ثلاثة مسائل:**

- المسألة الأولى: المظاهر الفكرية: التميز في المعتقدات والعبادات.
- المسألة الثانية: المظاهر الاجتماعية: التميز في الهيئات والعادات.
- المسألة الثالثة: المظاهر الحضارية: التميز في اللغة والأعياد والرموز والشعارات.

* **الخاتمة**، وتشمل: أهم النتائج والتوصيات.

* * *

تمهيد

التعريف بشيخ الإسلام بن تيمية:

هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني، ولد رحمه الله يوم الاثنين، عاشر، وقيل: ثاني عشر، من ربيع الأول، سنة 661هـ، في حرّان. وفي سنة 667هـ أغار التتار على بلده، فاضطرت عائلته إلى ترك حران، واتجهت إلى دمشق، وبها كان مستقر العائلة، حيث طلب العلم على أيدي علمائها منذ صغره، فنبغ ووصل إلى مصاف العلماء من حيث التأهل للتدريس والفتوى قبل أن يتم العشرين من عمره. وعرف ابن تيمية رحمه الله بالقوة بالحق، والصدع بالحجة، ومناظرة أهل البدع في زمانه، وابتلي وامتحن وحبس وأطلق مرات، ثم حبس في قلعة دمشق حتى مات بها في عام 728هـ[1]. وقد تميز شيخ الإسلام بمنهجيته العلمية التي اتسمت بالتكامل والشمول المعرفي، والربط بين النظري والعملي، واتصال معرفته العلمية بالخبرة العامة، فجاءت كتاباته على نحو متميز، وهذا الكتاب من أعظم الشواهد على هذا كما سيأتي.

التعريف بكتاب اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أهل الجحيم:

يعدّ هذا الكتاب من أشهر كتب شيخ الإسلام، وقد حقق مرتين: إحداهما من الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله والثانية من فضيلة الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل - وفقه الله - وهي المعتمدة في هذا البحث. وقد

(1) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير (4/ 135 - 139).

عالج هذا الكتاب مسألة مخالفة المسلمين لغيرهم، وتميزهم على الأمم، وذلك بإيراد الأدلة القطعية من الكتاب والسنة والإجماع، وبيان ما اشتملت عليه من مسائل عقدية وفقهية، وأحكامها الشرعية، والتحقيق في آراء العلماء حولها، وترجيح الراجح بالأدلة والقرائن الشافية الكافية في تأصيل علمي ومنهجية بارعة فذة رسخت منهجية علماء الأمة على نحوٍ لفت أنظار علماء الغرب في العصر الحديث، وبهرهم[2]، وقد طبق رحمه الله هذه المنهجية في سائر كتبه، وفي ضوئها خصص كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم، لمخالفة أصحاب الجحيم» موضحاً فيه توافر أدلة الأمر بمخالفة غير المسلمين، والنهي عن موافقتهم، مبيناً ما في مخالفتهم من مصالح ظاهرة وكامنة، كما كشف عما في موافقتهم من مفاسد ظاهرة وباطنة. وقد بين أصناف الذين أمرنا بمخالفتهم، ونهينا عن التشبه بهم، كأهل الكتاب والمشركين والمنافقين وأهل الجاهلية، والأعراب الجفاة الذين لم يتفقهوا في الدين، والأعاجم من الفرس والروم، وأهل الفسق والفجور والفساد ونحوهم من سائر الأمم والملل والنحل. وقد فصل شيخ الإسلام في هذا الكتاب جملة من الأمور التي جاء النهي الشديد عن التشبه بغير المسلمين فيها، وبخاصة: مسألة الشعائر والأعياد، والبناء على القبور واتخاذها مساجد، وكالغلو في الصالحين، واتخاذ المشاهد والمزارات، وسائر البدع والمحدثات في الدين؛ وكالافتتان بالنساء، والتفرق في الدين، والعصبيات والتحزبات والشعارات، والطرق وسائر المناهج المحدثة في الدين. الأمر الذي جعل من هذا الكتاب، مرجعاً أصيلاً في مظاهر التشبه بالكفار، وأنواعها وأحكامها، والتي ابتلي بها الناس منذ زمن بعيد، فكيف بزمانٍ لم تتوقف السيادة فيه على العولمة الاقتصادية أو السياسية؛ وإنما تجاوزت ذلك إلى سيادتها الثقافية تنميطاً، واختراقاً، ومحواً للهويات، وصهراً للثقافات في قالب التبعية، والتقليد للغالب.

تعريف الهوية:

لغة: بضم الهاء وكسر الواو وتشديد الياء المفتوحة نسبة مصدرية للفظ «هو» وهي استعمالٌ حادث. أما الهوية بفتح الهاء فهي البئر البعيدة المهواة، والموضع الذي يهوي، ويسقط من وقف عليه، والمرأة التي لا تزال تهوى[3].

واصطلاحًا: عرفها الجرجاني فقال: «الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة»[4].

ويمكن القول بأنها: حقيقة الشيء وصفاته التي

(2) لفت ابن تيمية رحمه الله أنظار الغرب ويمكن الرجوع لمقالة: تأثير ابن تيمية في الفكر الغربي في عين الاستشراق الألماني: http://www.alukah.net/translations/28620/0/#ixzz3ayt1ayoY

(3) لسان العرب، لابن منظور (15/ 371) مادة (هوا).

(4) التعريفات، للجرجاني، عبد القاهر ص (320).

يتميز بها عن غيره، وتظهر بها شخصيته، ويعرف بها عند السؤال عنه بما هو، أو ما هي؛ حيث عرفت الهوية في الموسوعة الفلسفية العربية بأنها: «ما به الشيء هو هو بوصفه وجوداً منفرداً متميزاً عن غيره»[5].

وتقوم هوية كل أمة على ما تتميز به عن غيرها من الأمم كدينها ولغتها وقوميتها وتراثها، وعليه فالهوية الإسلامية هي كل ما يميز المسلمين عن غيرهم من الأمم الأخرى، وقوام هويتهم هو الإسلام بعقيدته وشريعته وآدابه ولغته وتاريخه وحضارته المشتركة بين كل شعوبه على اختلافهم.

ولم يسُق شيخ الإسلام تعريفاً للهوية في هذا الكتاب، لكنه حين قرر ضرورة المخالفة، جعل معنى الهوية هو التميز الذي يجعل للمسلم صفاتٍ تخصه دون غيره، ودار كتابه كله حول بيان هذه القاعدة العظيمة في مخالفة أصحاب الجحيم، كما سيأتي بيانها.

* * *

المبحث الأول

قاعدة المخالفة التي ضبط بها شيخ الإسلام

معنى الهوية في هذا الكتاب

يشير عنوان الكتاب إلى بناءٍ استدلالي؛ فهو مبدوءٌ بلفظ «الاقتضاء» والذي يعني الاستلزام. والاستلزام في الأصل علاقة بين شيئين، والفكرة التي أراد الشيخ بيان أساسيتها في الدين، وبيان حدودها وآثارها ومعانيها هي: أن الهداية إلى الصراط المستقيم تستلزم مخالفة أصحاب الجحيم، وهذه هي هوية المسلمين.

وهو بهذا العنوان يجعل من المخالفة للكافرين شرطاً في تحقيق الهوية ولزوم الصراط. وقبل الخوض في تفاصيل هذه الرؤية لشيخ الإسلام أودّ التنبيه إلى أن قضية التشبه لدى علماء الإسلام عموماً ليست محل خلاف فيما يختص به الكفار من أمر دينهم ومن طقوس أعيادهم المحرفة؛ فذلك محرم بالإجماع، وإنما وقع الخلاف حول التشبه في باب العادات، ويرى شيخ الإسلام وجوب المخالفة في سائر الأمور، ويحمل أقل أحوال التشبه على الكراهة، وله في هذا الرأي استدلالٌ تأصيليٌ عميق، له دِلالاتٌ ثقافيةٌ، لا تقل عن عمق تلك الأدلة؛ إذ رأى أن التميز في العقيدة لا يخلو من تميزٍ في العادات، وأن التقارب والمشاكلة في العادات مفضٍ إلى نوع مودةٍ واستحسانٍ توجب التقليد، وتؤول إلى ضياع الهوية. وسوف يأتي بيان هذا التأصيل بعد تعريف المخالفة كما يلي:

معنى المخالفة:

المخالفة ضد الموافقة، وهي المغايرة، وخالفه في الأمر: عارضه، ولم يوافقه، وخالف بين الشَّيئين: جعل الواحد ضدَّ الآخر[6]. وبيان قاعدة المخالفة وضبطها وفقاً لاستدلالات شيخ الإسلام يأتي في سبعة ضوابط تم

(5) ص (821).

(6) لسان العرب (9/ 42).

استقراؤها من الكتاب وهي:

الضابط الأول: أن المخالفة مقصودة لذاتها، وهي أصلٌ في الدين ومعنى الصراط المستقيم:

برهن شيخ الإسلام على أن المخالفة لأصحاب الجحيم أصلٌ في الدين، وليست حالةً طارئة فرضتها عداوة أهل الكتاب للمسلمين في ذلك الحين، ولا هي مرهونةٌ بظروف تاريخية قد تتغير، بل هي في الحقيقة معنى الهداية؛ فإن الله تعالى هدى هذه الأمة إلى كثيرٍ مما ضلت عنه الأمم السابقة. وقد استبعد ﷺ عدم وضوح هذا المعنى وأصالته على بعض الناس؛ لكونه مما هو معلومٌ من الدين بالضرورة، فقال: «فإني كنت قد نهيت إما مبتدئًا أو مجيبًا عن التشبه بالكفار في أعيادهم، وأخبرت ببعض ما في ذلك من الأثر القديم، والدلالة الشرعية، وبيَّنت بعض حكمة الشرع في مجانبة الكفار،... ثم بلغني بأخرة أن من الناس من استغرب ذلك واستبعده؛ لمخالفة عادة قد نشؤوا عليها، وتمسكوا في ذلك بعمومات وإطلاقات اعتمدوا عليها،... ولم أكن أظن أن من خاض في الفقه، ورأى إيماءات الشرع ومقاصده، وعلل الفقهاء ومسائلهم، يشك في ذلك»[7]. وقد ذكر شيخ الإسلام ﷺ أن المخالفة مقصودة لذاتها، وأنها وردت مأموراً بها في النصوص على أحوال ثلاثة: «إما علة مفردة، أو علة أخرى، أو بعض علة، وعلى كل التقديرات تكون مأمورًا بها مطلوبة من الشارع»[8]. كما أشار شيخ الإسلام إلى ثلاث معانٍ أساسية في الدين تحققها المخالفة، وبها تتشكّل الهوية الإسلامية، وهي:

1 - معنى التميز والخصوصية: فذكر شيخ الإسلام أن للأمة الإسلامية هداية خاصة، ليست لسائر الأمم، قال: «فهدى الله الناس ببركة نبوة محمد ﷺ وبما جاء به من البينات والهدى، هداية جَلّت عن وصف الواصفين، وفاقت معرفة العارفين، حتى حصل لأمته المؤمنين عمومًا، ولأولي العلم منهم خصوصًا، من العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة، والسنن المستقيمة، ما لو جُمعت حكمة سائر الأمم، علمًا وعملًا، الخالصة من كل شوب، إلى الحكمة التي بعث بها، لتفاوتا تفاوتًا يمنع معرفة قدر النسبة بينهما»[9].

2 - معنى اللزوم والاستقامة؛ فإن الله تعالى فرض سؤال الهداية للصراط المستقيم والثبات عليه كل يوم خمس مرات، ووصفه بمخالفة صراط المغضوب عليهم والضالين، مما يدل على تأكيد مبدأ المخالفة في ديننا.

3 - معنى الوسطية في هذه المخالفة: وهي بحد ذاتها مزية للمسلمين، فاليهود مقصرون، والنصارى غالون، قال: «واليهود مقصرون عن الحق، والنصارى

(7) ص (51).

(8) ص (151).

(9) ص (54).

غالون فيه»[10].

ومن الوضوح بمكان أن هذه المعاني الثلاث تحدد الهوية الإسلامية، وتبين حقيقتها في ضوء إيماءات الشرع ومقاصده، وعلل الفقهاء ومسائلهم.

الإشارات الثقافية في استدلالات شيخ الإسلام على قاعدة المخالفة:

ساق شيخ الإسلام أدلة كثيرة تنوعت في دلالاتها على النهي عن مشابهة الكافرين في الظاهر، كما أبدع في بيان ما فيها من عللٍ للنهي، ثم بين تنوّع هذه العلل بشكلٍ يجمع للمتأمل ما يمكن أن يكون وصفاً ثقافياً لمعنى الهوية عند شيخ الإسلام، وبما يشير - أيضاً - إلى سبقه في وصف كثيرٍ من الظواهر الثقافية التي تعاني منها الأمة اليوم! ومن أبرز هذه الإشارات الثقافية التي أشار إليها الشيخ في سرد الأدلة ما يلي:

1 - الإشارة إلى مصطلح: «الهيمنة الثقافية»[11] حيث ذكر أن مشابهتهم في الظاهر هي اتباعٌ لأهوائهم؛ لأن الله تعالى أخبر أنهم خالفوا دينهم، واتبعوا أهواءهم، وفي اتباع أهوائهم عُلوٌ لهم، وهو مضمون ما يسمى بـ«الهيمنة الثقافية» والتي تعني فرضَ الغالب ثقافته على المغلوب، بل بذلَ الغالب كل سببٍ لجعل الآخر تابعاً؛ وعبارة شيخ الإسلام قريبة جداً من هذا المعنى حيث قال: «وأهواؤهم هو ما يهوونه،... وموافقتهم فيه اتباعٌ لما يهوونه، وإعلاءٌ لشأنهم؛ ولهذا يفرح الكافرون بموافقة المسلمين في بعض أمورهم، ويسرون به، ويودون أن لو بذلوا عظيمًا ليحصل ذلك». فهو لم يصف هذه الهيمنة - فقط - بل وصف حشدهم إمكانياتهم لهذه الهيمنة، والله المستعان[12].

2 - الإشارة إلى مصطلح: «الممانعة الثقافية»[13] حيث بيّن الشيخ أن مشابهتهم في بعض دينهم تفضي إلى طمعهم بالموافقة في دينهم كله، واستدل بآية تحويل القبلة، فقال: «قال غير واحد من السلف معناه: لئلا يحتج اليهود عليكم بالموافقة في القبلة، فيقولون: قد وافقونا في قبلتنا، فيوشك أن يوافقونا في ديننا، فقطع الله بمخالفتهم في القبلة هذه الحجة،...ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل، ومعلوم أن هذا المعنى ثابت في كل مخالفة وموافقة، فإن الكافر إذا اتُّبع في شيء من أمره كان له في الحجة مثل ما كان، أو قريب مما كان لليهود من

(10) ص (57).

(11) هي محاولة مجتمع فرض وتعميم نموذجه الثقافي الخاص على المجتمعات الأخرى. للاستزادة انظر: الاتصال والهيمنة الثقافية، لهربرت شيلر.

(12) ص (57). قلت: وقد بذلوا كل عظيم لهذه الهيمنة عبر العولمة الثقافية لأخلاقهم وأفكارهم وهيئاتهم.

(13) مصطلح يعني رفض الثقافة الوافدة.
للاستزادة انظر: هويتنا الثقافية في خضم تحولات العولمة من الاختراق إلى الممانعة، لعبدالعزيز نميرات، مجلة الكلمة، العدد (21) لسنة 1998م.

الحجة في القبلة»[14]. وهذا التعليل من الشيخ رحمه الله يشير إلى معنىً ثقافي متضمن يكثر التأكيد عليه اليوم في كثيرٍ من الطرح الفكري، وهو أن الممانعة الثقافية - والتي تعني رفض ما لا ينتمي لثقافة المسلم، ولا يعبّر عنها- أنجع وسائل المقاومة للغزو الفكري، وهي من أمنع الحصون ضد هذا الغزو، تماماً كما عبّر شيخ الإسلام عن هذا بقوله: «ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل» وهو ثمرة الممانعة ومقتضاها.

3 - الإشارة إلى مصطلح «التنوع الثقافي»[15] داخل الهوية الواحدة، وذلك في سياق الأحاديث التي تؤكد وقوع الاختلاف بين هذه الأمة، وكأنه رحمه الله يشير إلى سنة من سنن الله تعالى في البشر والاختلاف الذي هو طبيعة في الخلق، وسنة ماضية، لكنه يحذر من جعل هذا الاختلاف سبباً للنزاع، مؤكداً ذلك بذكر أنواع الاختلاف وما هو منه محمودٌ ومذموم.

4 - الإشارة إلى أدب الاختلاف، وفقه الاختلاف، أو أخلاقيات الاختلاف، وموضوعية النقد، وضرورة التخلي عن «التحيز» عند الحكم على الآخرين، فقال رحمه الله: «نهى النبي ﷺ عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع الآخر من الحق...واعلم أن أكثر الاختلاف بين الأمة الذي يورث الأهواء؛ تجده من هذا الضرب، وهو أن يكون كل واحد من المختلفين مصيبا فيما يثبته، أو في بعضه، مخطئًا في نفي ما عليه الآخر،... وإن أكثر الجهل إنما يقع في النفي الذي هو الجحود والتكذيب، لا في الإثبات؛ لأن إحاطة الإنسان بما يثبته أيسر من إحاطته بما ينفيه»[16] وقد أفاض في ذكر الخلاف وأنواعه وآثاره وما يمدح منه وما يذم، مؤكداً أن بواعث الاختلاف لا تخرج عن أمرين، هما: الظلم، والجهل. وقد نبه إلى منهج التثبت وضرورة الاستقصاء وجمع أطراف الكلام والنظر العميق قبل إصدار الأحكام، فقال: «وأكثر ما يكون ذلك لوقوع المنازعة في الشيء القليل قبل إحكامه وجمع حواشيه وأطرافه»[17].

الضابط الثاني: أن الإخبار بوقوع التشبه قدراً لا يعارض وجوب التعبد بالمخالفة.

من المسائل التي يناقشها علماء الأصول مجيء الأمر أو النهي بأسلوب الإخبار، تحت مسألة الخبر الذي يفيد النهي، قال الزركشي في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ (الواقعة:79).

«فالآية هنا خبرٌ بمعنى النهي، تفيد النهي عن

(14) ص (77).

(15) مصطلح يعني: ضرورة الاعتراف بالاختلافات القائمة بين المجتمعات الإنسانية، وعدم اتخاذها سبباً للنزاعات. انظر: الإعلان العالمي لليونسكو بشأن التنوع الثقافي، موقع اليونسكو على الشبكة (http://www.unesco.org/new/ar).

(16) ص (113).

(17) ص (135).

مسِّ القرآن حال عدم الطهارة. ولفظ الخبر المراد به النهي أبلغ في النهي؛ لأن خبر الشارع لا يتصور وقوع خلافه، والنهي قد يقع مخالفته»[18] والخبر عن وقوع التشبه في هذه الأمة يدخل في النهي من هذا النوع؛ فقد أفاض في بيان عدم التعارض بين الحكم القدري المخبر عنه في وقوع التشبه باليهود والنصارى في هذه الأمة، وبين الحكم التعبدي بالأمر بمخالفتهم. بل إن ورود الخبر بذلك مدعاةٌ للتمسك بهذه العبودية، ودليلٌ على التحذير من التهاون فيها بحجة الوقوع، وقد بيّن أن هذا الإخبار مما يساق للتأكيد على أهمية عبودية المخالفة، ويمكن بيان ذلك بأمور:

الأول: أنه «ليس إخباراً عن جميع الأمة، بل قد تواتر عنه ﷺ أنه قال: (لا تزال طائفة من أمته ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة)[19]، وأخبر ﷺ: (أن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة[20]، وأن الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته)[21] فعلم بخبره الصدق أنه في أمته قوم متمسكون بهديه، الذي هو دين الإسلام محضا»[22].

الثاني: أنه سيق على وجه التحذير، فالتشبه بهم هو نوع انحراف عن لزوم الصراط «وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع، ويزينه الشيطان؛ فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله – سبحانه – بالهداية إلى الاستقامة»[23].

الثالث: أنه أُتبع بإخباره ﷺ بأن الله تعالى تكفل بحفظ هذا الدين، وهو خبرٌ وبشارة تدل على أهمية التمسك بالمخالفة التي هي معنى الصراط المستقيم.

الرابع: أن مجرد العلم بوجوب المخالفة هو خيرٌ في ذاته، ولو وقعت من العالم بذلك، يقول –: «ولو فرض أن الناس لا يترك أحد منهم هذه المشابهة المنكرة؛ لكان في العلم بها معرفة القبيح، والإيمان بذلك؛ فإن نفس العلم والإيمان بما كرهه الله خير، وإن لم يعمل به، بل فائدة العلم والإيمان أعظم من فائدة مجرد العمل الذي لم يقترن به علم، فإن الإنسان إذا عرف المعروف، وأنكر المنكر كان خيراً من أن يكون ميت القلب لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا»[24].

وهذا التقرير بأهمية العلم والتصديق – ولو دون

(18) البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي (3/ 354).

(19) أخرجه مسلم من حديث ثوبان ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ)، رقم (1920).

(20) حديث كعب بن عاصم الأشعري ﷺ: (إن الله قد أجار أمتي من أن تجتمع على ضلالة). قال الألباني في الصحيحة: حسن بمجموع الطرق، ورقمه (1331).

(21) حديث أبي عنابة الخولاني (لا يزال الله يغرس في هذا الدين= =غرساً يستعملهم في طاعته) رواه ابن ماجه (8)، وأحمد (17333). وهو في السلسلة الصحيحة (2442).

(22) ص (59).

(23) ص (60).

(24) ص (138).

تطبيق- ربما يتيح المجال للحديث عن جدلية ثقافية مشهورة حول الأسبق في مسيرة التحول الثقافي، هل هو التصورات، والأفكار والمعتقدات، أم الهيئات والظواهر؟ وقد ذهب كثيرٌ من علماء الاجتماع إلى أن التحول الثقافي في الغالب يكون سريعاً في الماديات، بطيئاً في الأفكار والتصورات، مما يعني أنه ليس بالضرورة أن يكون التقليدُ نابعاً من تبعية فكرية، وإن كان مؤشراً هامّاً على ضعف الاعتزاز بالهوية والشعور بالأنفة الثقافية. ومن فقه الشيخ أنه عالج ما قد يفهم خطأً من هذا التنبيه، حين كرر مراراً التأكيد على التلازم بين الظاهر والباطن، وأن تأثير الظاهر على الباطن تأثيرٌ خفي متدرج، وهو ما سيأتي بيانه بشيءٍ من التفصيل.

الضابط الثالث: أن المخالفة لا تختص بالباطن دون الظاهر:

يعبر هذا الضابط بشكلٍ خاص عما يسميه علماء الثقافة بـ«مكونات الهوية وعناصرها» التي هي مجموع الاعتقادات والأفكار والرؤى والتصورات، وما يعبر عنها من مظاهر حسية ومادية، كاللباس واللغة والسلوك والعمران ونحوه. يقول شيخ الإسلام: «ثم إن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب: من اعتقادات، وإرادات، وغير ذلك، وأمور ظاهرة: من أقوال، أو أفعال قد تكون عبادات، وقد تكون - أيضًا - عادات في الطعام واللباس، والنكاح والمسكن، والاجتماع والافتراق، والسفر والإقامة، والركوب وغير ذلك. وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورًا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال، يوجب للقلب شعورًا وأحوالا»[25]. وفي هذا السياق يُفهم من شيخ الإسلام أن «المشاكلة» أو التشبه بالهدي الظاهر، تنافي التميز الذي هو جوهر هوية المسلم، وتؤدي بالضرورة إلى المشاكلة في الباطن، وكأنه - يتحدث عن ظاهرة «الاستلاب الثقافي»[26] وهي من أكثر الظواهر وضوحاً في زمن العولمة، ومن لطائف الإشارات الثقافية في هذا الموضع أنه ساق عدداً من الشواهد على فساد المشاكلة بالظاهر، وبيّن عظيم أثرها في الفاعل، مؤكداً أن مثل هذه الآثار لا تظهر لكثيرٍ من الناس، ولا يدركون فسادها، والحكمة من النهي عنها، وهذا الذي وصفه شيخ الإسلام هو ذاته معنى «الاختراق الثقافي»[27]. وما أورد الشيخ من نصوص شرعية وتطبيقات في السيرة

(25) ص (69).

(26) الاستلاب يعني: انسلاخ الشخص عن نفسه؛ ليصبح خاضعًا ومتمثلاً بشخص آخر، وهو مفهوم ثقافي يدل على التبعية والتقليد مع احتقار الذات، وتعظيم الآخر. انظر: في السياق التداولي لمفهوم الاستلاب رؤية نقدية، الطيب أبو عزة. مقالة في مركز نماء للبحوث الدراسية على الشبكة العالمية.

(27) نوعٌ من التأثير الثقافي يمرّ عبر وسائل ذكية وخفية تؤدي إلى محوٍ تدريجي للهوية. انظر كتاب: اختراق الثقافة وتبديد الهوية، الأمن القومي في عصر العولمة، لعلي ليلة (1/ 22).

النبوية والتاريخ الإسلامي وحضارته الماجدة يتضمن معاني الهوية المسلمة، ويبين حقيقتها، وهو كفيل بالمحافظة على ماهيتها الحقة، وقد أبدع شيخ الإسلام في توضيح قاعدة التلازم، - وأعني بها تأثير المشاكلة في الظاهر على الموافقة في الباطن - وسوف أعرض هذا الإبداع في سرد طريقته بما يفوق ما يقرره علماء الأنثروبولوجيا[28] المعاصرون حيث لخص هذا التلازم في النقاط التالية:

1 - أن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسبًا وتشاكلاً بين المتشابهين، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال، وهذا أمر محسوس؛ فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة - مثلاً - يجد من نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه متقاضيًا لذلك، إلا أن يمنعه مانع.

2 - أن المخالفة في الهدي الظاهر توجد مباينة ومفارقةً توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال، والانعطاف على أهل الهدى والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين.

3 - أن مشاركتهم في الهدي الظاهر، توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التميز ظاهرًا، بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين[29].

وهذه الأمور الثلاثة تمثل - بحق - فلسفة ثقافية عميقة حول ما يمكن أن يسمى بظاهرة «ضياع الهوية» وعلاقتها بما يسمى في علم النفس بـ«قابلية الاستهواء» التي يعني: الانجذاب لتقمص شخصية أخرى مختلفة عما عليه الإنسان في الحقيقة، وقد تكون شخصية واقعية أو تاريخية أو حتى خيالية! وقد جعل الشيخ هذه الفلسفة في ثلاثة أمور، بعضها يترتب على بعض، فالتشبه بالكافرين في الظاهر تضييعٌ للتميّز الذي هو مصداقية هوية المسلم، والذي يسبب ضياعه ميولٌ ظاهرٌ وخفيّ إلى ما هم عليه من فساد الاعتقاد وانحراف السلوك، وبعدٌ عن هدي الإسلام وسبيل المؤمنين، واختلاطٌ في التصنيف وعجز عن التفريق!

الضابط الرابع: أن المخالفة لا تختص بأهل الكتاب.

أشار شيخ الإسلام تحت هذا الضابط «أن المخالفة لا تختص بأهل الكتاب» إلى أن التشبه المنهي عنه، ليس قاصرًا على التشبه بأهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل يشمل الأعاجم من الروم والفرس والمجوس، والأعراب الذين لم يكمل دينهم، ويغلب عليهم الجهل؛ كما أن النهي عن التشبه شمل أمورًا

(28) هو علم دراسة الثقافة الإنسانية والمجتمعات البدائية، وقد اشتهر بهذه التسمية أكثر من الترجمة العربية التي يعدها بعضهم قاصرة عن معناه.

(29) ص (70).

أخرى، كالنهي عن التشبه بالشيطان وأحواله وأعماله، وهذا الأمر بعموم المخالفة يشير إلى أهم خصائص الهوية الإسلامية وهي: التميز.

وهذا التميز بلا شك إنما يعني التفرد بمقوماتٍ خاصةٍ للهوية تنبع من خصوصية هذا الدين وكماله، وهذا الملمح المهم يحتّم علينا الإشارة إلى عددٍ من المصطلحات الثقافية التي تعبّر عن هذا المعنى، وتقترب منه، ومنها على سبيل المثال:

أ - الاستغناء الثقافي، وهو معنىً يدل على التفرد والخصوصية مع علوّ وإبداعية لا تتكرر في هوية أخرى. وقد أكد شيخ الإسلام على هذا التميز بـ«الاستغناء الثقافي» في معرض حديثه عن التشبه بالعجم ونحوهم، مبيناً أن الشريعة إذا نهت عن مشابهة الأعاجم دخل في النهي ما عليه الأعاجم الكفار قديمًا وحديثًا، إذا كان يخالف السنة، أو الآداب الشرعية. كذلك يدخل في مسمى الجاهلية ما كان عليه أهل الجاهلية قبل الإسلام، وما عاد إليه كثيرٌ من الناس بعد ذلك، من صفات وأعمال وعادات الجاهلية. ومبيناً أن مخالفتهم، وإن لم تكن في أمورٍ محرمة، هي خيرٌ لنا، وهو ما يعنيه مفهوم الاستغناء الثقافي.

ب - الأنفة الثقافية، وهي الاعتزاز بهذا الاختلاف؛ وإشهاره وإظهاره؛ فإن المخالفة ليست مجرد مفارقة؛ بل لابد فيها من عزة وأنفة توجب إشعار الأمم الأخرى بقصد المخالفة والاستغناء بما شرعه الله تعالى واختاره لهذه الأمة، وقد ورد هذا في قول الشيخ: «...فهذا الحديث يدل على كثرة ما شرعه الله لنبيه من مخالفة اليهود، بل على أنه خالفهم في عامة أمورهم حتى قالوا: ما يريد أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه»[30].

الضابط الخامس: أن المخالفة لا تعني العلو والاستكبار والفخر الجاهلي:

من المعاني العظيمة التي ضبط بها شيخ الإسلام معنى المخالفة، التنبيه على أن الأمر بالتميز والمخالفة لا يعني الفخر والاستكبار، كما هو حال الجاهلية، بل إنه استدرك على بعض ما قد يفهم منه ذم أجناسٍ من الناس بعمومها، كذم الأعراب والأعاجم، أو فضل بعض الناس بعموم، كالعرب وقريش، وحرر ذلك تحريراً دقيقاً، فقال: «يجب على المسلم - إذا نظر في الفضائل، أو تكلم فيها - أن يسلك سبيل العاقل الديِّن، الذي غرضه أن يعرف الخير، ويتحراه جهده، وليس غرضه الفخر على أحد، ولا الغمص من أحد، فقد روى مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنه أوحي إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد)[31] فنهى - سبحانه - على لسان رسوله عن نوعي الاستطالة على الخلق، وهي: الفخر والبغي؛ لأن المستطيل إن استطال

(30) ص (177).

(31) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه برقم (2865).

بحق فقد افتخر، وإن كان بغير حق فقد بغى، فلا يحل لا هذا ولا هذا، فإن كان الرجل من الطائفة الفاضلة، مثل: أن يذكر فضل بني هاشم أو قريش أو العرب أو بعضهم، فلا يكن حظه استشعار فضل نفسه، والنظر إلى ذلك، فإنه مخطئ في هذا؛ لأن فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص كما قدمناه، فرب حبشي أفضل عند الله من جمهور قريش، ثم هذا النظر يوجب نقصه وخروجه عن الفضل، فضلًا عن أن يستعلي بهذا، أو يستطيل، وإن كان من الطائفة الأخرى، مثل العجم، أو غير قريش، أو غير بني هاشم، فليعلم أن تصديقه لرسول الله ﷺ فيما أخبر وطاعته فيما أمر، ومحبة من أحبه الله، والتشبه بمن فضل الله، والقيام بالدين الحق، الذي بعث الله به محمدًا؛ يوجب له أن يكون أفضل من جمهور الطائفة المفضلة، وهذا هو الفضل الحقيقي»[32]. وبهذا البيان الدقيق يشير شيخ الإسلام إلى اختلاف هوية المسلم عن غيرها من الهويات التي تبنى على العرق والجنس والدم أو على الجنسية، بل هي هويةٌ دينيةٌ تستوجب الانتماء لكل من حمل هذا الدين، ويستحق بها الشرف والتكريم، وتلغي ما سواها من المكونات الأرضية التي يفخر بها الناس، وقد صرح بهذا في كثير من مؤلفاته الواسعة، ومنها - على سبيل المثال - قوله: «الفضيلة بالنسب فضيلة جملة، وفضيلة لأجل المظنة والسبب، والفضيلة بالإيمان والتقوى فضيلة تعيين وتحقيق وغاية، فالأول يفضّل به؛ لأنه سبب وعلامة، ولأن الجملة أفضل من جملة تساويها في العدد، والثاني يفضّل به؛ لأنه الحقيقة والغاية؛ ولأن كل من كان أتقى، كان أكرم عند الله، والثواب من الله يقع على هذا؛ لأن الحقيقة قد وجدت؛ فلم يعلق الحكم بالمظنة»[33]، وقال: «والفضل إنما هو بالأسماء المحمودة في الكتاب والسنة مثل: الإسلام، والإيمان، والبر، والتقوى، والعلم، والعمل الصالح، والإحسان، ونحو ذلك، لا بمجرد كون الإنسان عربيا، أو عجميا، أو أسود، أو أبيض، ولا بكونه قرويا، أو بدويا»[34].

فمدار التقوى هو العمل الصالح الذي يقع تحت قدرة المكلف وجهده، ومجاله مفتوح لجميع المكلفين، أما فضيلة النسب فهي مزيةٌ لا يحققها الكسب المعتبر؛ لذلك لم يعدُّها الشارع مدارَ التفاضل المشروع.

الضابط السادس: أن المخالفة والتميز لا تعني العنت والمشقة ولا التشديد على النفس.

يجلّي شيخ الإسلام تحت ضابط «المخالفة والتميز لا تعني العنت والمشقة ولا التشدد على النفس» أصالة الوسطية في هذا الدين، وأنها ملازمةٌ لمعنى التميز، ويُسر الصراط المستقيم.

(32) ص (377).

(33) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لابن تيمية (2/ 261).

(34) ص (342).

وكأنه أراد - بعد حشده للعديد من الأدلة من الكتاب والسنة وآثار السلف على تحريم التشبه ووجوب المخالفة - أن يسبق إلى نفي شبهةٍ قد ترد على الأذهان من أن المخالفة فيها نوعٌ من الشدة على النفس، أو أن فيها مشقةٌ متضمّنة، مؤكداً رحمه الله أن اليسر غاية هذا الدين كله، وأن المشقة في الشريعة لا تطلب لذاتها، ولا يؤجر عليها من تكلّفها، وموضحاً معنى التشديد بقوله رحمه الله: «والتشديد: تارة يكون باتخاذ ما ليس بواجب، ولا مستحب، بمنزلة الواجب والمستحب في العبادات، وتارة باتخاذ ما ليس بمحرم، ولا مكروه بمنزلة المحرم والمكروه، في الطيبات»[35]. وساق أمثلة على هذا اليسر، منها: الأمر بالتخفيف في الصلاة مع عدم الإخلال بتمامها، والنهي عن الوصال في الصوم، وعن الرهبانية، وعن الصوم عن الكلام ونحوه. بل أثبت رحمه الله أن التشبه هو ما يفضي إلى هذا النوع من التشديد؛ إذ الأصل في شرك الأمم الأخرى هو الغلو في الدين من وجوه عدة، كالغلو في الرسل والأولياء والصالحين، وتعظيم المقامات، وإن ظهر منهم مع هذا الغلو تفريط في أمر العبادة والأخلاق والسلوك.

الضابط السابع: أن المخالفة دائرةٌ بين الوجوب والاستحباب.

حين قرر شيخ الإسلام مدار الهوية على التميز والمخالفة، لم يجعل هذه المخالفة سبباً للانفصال الحضاري أو التمحور حول الذات، وقطع الانتفاع بما عند الأمم الأخرى، بل أشار إلى أمر مهم فيما يتعلق بمسألة النهي عن التشبه بالكفار والأعاجم ونحوهم، فهو - بعد أن أصّل القاعدة - ذكر أن لها استثناء، فهو يذكر أن المسلم إذا واجهته حالة يضطر معها إلى التشبه بالكفار، فإنه يجوز له ذلك في حدود الضرورة، ويضرب لذلك مثلًا فيقول: «ومثل ذلك اليوم، لو أن المسلم بدار حرب، أو دار كفر غير حرب، لم يكن مأمورًا بالمخالفة لهم في الهدي الظاهر، لما عليه في ذلك من الضرر، بل قد يستحب للرجل، أو يجب عليه، أن يشاركهم أحيانًا في هديهم الظاهر، إذا كان في ذلك مصلحة دينية: من دعوتهم إلى الدين، والاطلاع إلى باطن أمورهم؛ لإخبار المسلمين بذلك، أو دفع ضرر عن المسلمين، وغير ذلك من المقاصد الصالحة». «أما الإفادة مما عند الكفار اليوم من صناعات، وعلوم تطبيقية ونحوها، فهذا أمر آخر، لا علاقة له بموضوع التشبه؛ لأن هذه العلوم والصناعات ليست من خصوصيات الكفار - وإن احتكروها - لأنها إمكانات بشرية لا بد أن تتوفر عند من يحرص عليها، وينميها، ويجد في تحصيلها، سواء كان مسلمًا أو كافرًا. كما أن استيراد الصناعات وعلومها لا يعد من قبيل التشبه والتقليد؛ لأن الرسول كان يستعمل ما يصنعه الكفار من لباس وآنية ونحو ذلك. إنما طريقة الإفادة من

(35) ص (263).

الصناعات إذا نقل صاحبها عاداتهم وتقاليدهم ونظمهم وكل ما هو من خصائصهم؛ فإن هذا هو المحذور»[36].

وإن هذه الرؤية الفذة والفقه الإيجابي الفطن من شيخ الإسلام مرتبطان ارتباطًا وثيقًا بمقاصد الشريعة ويسر أحكامها وملاءمتها لحالة الضعف والقوة، والمواطنة والغربة، وأهمية هذه الرؤية في التواصل الحضاري، واعتبارات المجتمعات المدنية، وأن في الأمر مندوحة للمسلم، فلا يظهر تميزه إذا كان في ذلك خطورةٌ على دينه، بل يباح له - وقد يجب عليه - إخفاء هذا التميز، والاختلاط بالآخرين، ومراعاة أنظمتهم المدنية - ما لم تحلّ حراماً -.

***

المبحث الثاني

مظاهر الهوية في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم

يعد هذا المبحث خلاصة الكلام حول رؤية شيخ الإسلام رحمه الله للهوية الإسلامية، فقد أوضح المسألة غاية الإيضاح، وقدم تفصيلاً لمكونات الهوية ومظاهرها، مستفيضاً - كعادته - في بيان أدلتها وأقوال السلف ونقولهم ومواقفهم المؤكدة على اعتبار هذه المظاهر والمكونات.

وقد تطرق الشيخ إلى جميع مستويات الهوية الثلاث - التي يعتني بها علم الثقافة - وهي:

- الهوية الفردية.
- الهوية الجماعية، وهي التي تكون على مستوى الجماعة التي يوجد فيها الفرد.
- الهوية الحضارية، وهي التي تشمل الأمة كلها.

وفي هذا المبحث لن يكون هناك استقصاء لهذه المظاهر، بل إشارة إلى أبرزها؛ إذ ليس المقصود إعادة سرد ما في الكتاب، وإنما الإشارة إلى تقسيماته، واستجلاء إشاراته الثقافية. ويمكن تفصيل القول في هذا في المسائل التالية:

المسألة الأولى: المظاهر الفكرية: التميز في المعتقدات والعبادات.

يلحظ الناظر في كتب شيخ الإسلام عامة، وهذا الكتاب خاصة، كثرة ورود الأدلة على مسائل التوحيد، والنهي عن الشرك والقباب والغلو في التعظيم ومنكرات القبور والتوسل بغير الله، وكلها من مظاهر الشرك المحرمة. ولا عجب أن يهتم شيخ الإسلام بهذا المعنى، ويؤكده في كل مقام؛ فإن التوحيد هو أساس معنى الإسلام، ومنه تنبثق هوية المسلم، وآثار التوحيد في حياة المسلمين لا حصر لها، بل إن التوحيد يصبغ عقل المسلم ووجدانه وسلوكه بما يضبط أفعاله وتصوراته على الصراط المستقيم، وحين يؤكد الشيخ رحمه الله على مثل هذا، فإنه يجعل الأمر أعظم من هوية فردية؛ لأن التوحيد هوية أمّة وعنوان ملّة.

(36) مقدمة المحقق ص (33).

وسوف أسرد بعضًا من المظاهر الكثيرة التي نبه شيخ الإسلام عليها في باب الاعتقادات والعبادات مع تحليل ثقافي لبعضها، وهي كالتالي:

1 – النهي عن الموالاة والمودة للكافرين، وهما أمران قلبيان من معاني التعبد، ولكن الشيخ ربط بينها وبين التشبه في الظاهر مؤكداً أن المخالفة في الظاهر تكمّل البراءة منهم، فقال: «والموادة، وإن كانت متعلقة بالقلب، لكن المخالفة في الظاهر أعون على مقاطعة الكافرين ومباينتهم»[37].

2 – النهي عن مشابهتهم في التبتل والتنطع والرهبانية والغلو في الأقوال والأعمال.

3 – النهي عن مشابهتهم في البناء على القبور واتخاذها مساجد.

4 – النهي عن الصلاة في أوقات معينة لموافقة الشيطان أو بعض أهل الشرك والأوثان، والرخصة بالصلاة في النعال مخالفة لهم.

5 – النهي عن مشابهتهم في بعض الصيام، ومخالفتهم في تبكير الإفطار، وتأخير السحور.

وفي هذا كله يوضح الشيخ كيفية ظهور أثر التوحيد في حياة المسلم، والتزام مخالفة كل ما يمكن أن يكون منافياً للتوحيد أو لكماله، مما يجعل من عقيدة التوحيد محوراً في المخالفة وأساساً لها. ولهذا لا يمكن لمسلم أن يقبل مظاهر الشرك التي تحرر منها بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) كالتعظيم لغير الله، أو الخوف من سواه سبحانه، أو الذبح لغيره، أو التوسل ونحو ذلك. ولذات السبب نجد أن الحديث عن الشرك والقبور وقضايا التوحيد يحتل الجزء الأكبر من هذا الكتاب؛ لأنها أصل ملة الإسلام، وبها يستقيم للمرء قلبه وروحه، وتسكن نفسه، وتطمئن إيماناً وتسليما، فلا تقبل مظاهر الشرك، ولا ترضى بها. ولا شك أن نبذ مظاهر التعظيم لغير الله جعلت كثيراً من العقلاء يقبلون على هذا الدين العظيم، ويتلمسون فيه حقائق غائبة في ظل الأديان المحرفة، ولهذا وجد من يقول: إن مظاهر القبور البسيطة لعظماء الملوك من المسلمين بعث في نفسه شغفاً نحو القراءة والسؤال عن سبب ذلك في دين الإسلام، ليصل إلى حقيقة التوحيد خالصة من كل شائبة، ونحن إذ نذكر هذا نتذكر وصية النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: (ألا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته)[38].

لقد بدأت مظاهر تميز الأمة تسري في كيانها بتميز العقيدة والعبادة، وكان تحويل القبلة أولاً عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة أشارت إليها الآية الكريمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ

(37) ص (150).

(38) رواه مسلم في كتاب الجنائز برقم (969)، باب الأمر بتسوية القبور.

عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (البقرة: 143)، فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، فأراد الله استخلاص القلوب وتحريرها من كل عصبية غير الإسلام، فاختار لهم المسجد الأقصى؛ ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية وليظهر من يتبع الرسول، فلما استسلم المسلمون صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام بعد الهجرة، وقد كان اليهود يتخذون من موافقة قبلتهم حجة لهم ولكن الله ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى هي حقيقة الإسلام، حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل؛ ليكون البيت الحرام، ولم يكن بد من تمييز المكان الذي يتجه إليه المسلم بالصلاة والعبادة وتخصيصه؛ كي يتميز المسلم في منهجه واتجاهه وفي الراية والعلامة.

المسألة الثانية: المظاهر الاجتماعية: التميز في الهيئات، والعادات.

من المسلّمات أن لكل أمة هوية تتميز بها، ولكل هوية علاماتٌ تعرف بها، وإن كانت المميزات الفكرية والعقائدية أمورخفية قد لا تظهر في شعارات ورموز؛ فإن اللباس والزينة والعادات مما يشف عن تلك الأفكار، ويظهر تلك المعتقدات المستترة الباطنة، وغالباً ما تعبّر عن القيم التي تؤمن بها الشعوب والأفراد والجماعات؛ ولهذا فالمظاهر الاجتماعية لكل مجتمع إنما هي - في الغالب - مرآة قِيَمِه، ودليل أفكاره ومقوماته. وقد قدم الشيخ وصفاً دقيقاً لأهمية تميز المسلم عن غيره في الهيئات والعادات، تبعاً لتميزه في الأفكار والمعتقدات. وساق حشداً من الأدلة على النهي عن مشابهة الكافرين في عوائدهم، وقد عقد فصلاً في خبر الوثيقة العمرية التي كان مضمونها التزام أهل الذمة بعدد من الشروط التي فرضها عليهم بإجماع الصحابة في زمانه، والتي كان كثير منها يتعلق بالهيئات والعادات بعنوان: «فصل في الإجماع على الأمر بمخالفة الكفار والنهي عن مشابهتهم»[39] وكان هذا من الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ في إطار السعي لحفظ تميز الهوية الإسلامية في زمن التقارب الثقافي الأول مع الأمم الأخرى في المجتمع المسلم والذي بدأ الكثيرون بالانضمام تحت لوائه والاندماج فيه بعد توسع الفتوحات الإسلامية المباركة.

ومن أمثلة التميز في الهيئات التي ذكرها شيخ الإسلام - على سبيل المثال لا الحصر - ما يلي:

1 - الدعوة إلى مخالفة اليهود بإعفاء اللحى وتغيير الشيب.

2 - النهي عن اشتمال الثوب في الصلاة كاليهود، وعن السدل، وعن تغطية الفم في الصلاة.

(39) ص (297) وما بعدها.

3 – الدعوة إلى مخالفة اليهود في طريقة لبس العمائم.

4 – استنكار معاوية ﷺ على المنبر وصل النساء شعورهن كما تفعل نساء اليهود.

5 – النهي عن الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة وفي الحديث: (فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة).

6 – النهي عن المبالغة في تزيين المساجد وتعظيمها بالشرفات ونحوها، كصنع أهل الصليب في كنائسهم.

7 – النهي عن رفع القبور وتزيينها والبناء عليها كما فعلت الأمم السابقة.

والناظر في كل ما تقدم يجد أنها مما يدخل في باب الهيئات سواءً في اللباس أو المساجد والقبور ونحوها، مما يدل دلالة واضحة على أن هذه المظاهر هي وجهٌ من وجوه المخالفة، وهي من أعظم مجالات التميز لهذه الأمة.

المسألة الثالثة: المظاهر الحضارية: التميز في اللغة والأعياد والرموز والشعارات.

يمكن القول بأن المظاهر الحضارية هي وسيلة الأمم في التعبير عن نفسها وكيانها وثقافتها. وهي كل ما يمكن أن يكون علامة تختص بها أي أمة عن بقية الأمم، ولا شك أن المظاهر الحضارية هي في حقيقتها مظاهر فكرية واجتماعية، ولكنها تشكل الجسر الذي يعبر منه الآخرون لفهم أية حضارة. ومن أبرز المظاهر الحضارية ما يلي:

1 – **اللغة:**

وقد أولاها شيخ الإسلام عناية خاصة، والمتأمل في العرض الثقافي المعاصر، يجد أن اللغة من أهم مقومات الهوية لدى سائر الأمم، بل إن فرض لغة المستعمر في زمن الاستعمار – على سبيل المثال – كان وسيلة فعالة لاختراق الهويات، وتذويب الثقافات، وقطع صلة الأمة بدينها وتاريخها على السواء.

وقد أفاض شيخ الإسلام في حديثه عن الرطانة «ليبيِّن لنا أن للصحابة مواقف معروفة نحو ذلك، تتمثل بقول عمر: «إياكم ورطانة الأعاجم» فكانوا يكرهون أن يتكلم المسلم بغير العربية على وجه الاعتياد والدوام، ولغير ضرورة. أما عند الحاجة والضرورة، وما تقتضيه مصلحة المسلمين العامة، فإن ذلك جائز، وقد جاءت السنة به، فقد أمر الرسول ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم السريانية لغة اليهود، ليقرأ في كتبهم، ويكتب بها إليهم، ويترجم كلامهم، ويأمن مكرهم. كما كان الخلفاء الراشدون يفعلون ذلك، وكتبوا الدواوين بغير العربية، إلى أن صارت القدرة على تعريبها، وكان المسلمون مضطرين لمخاطبة الشعوب التي دخلت الإسلام بعد الفتوح بلغاتها كذلك. أما التكلم بغير العربية لغير

ضرورة، فإن السلف كانوا يكرهونه أشد الكراهية، وينهون عنه، ولهم في ذلك أقوال معروفة سرد المؤلف الكثير منها. وكانوا يرون أن العربية من مستلزمات الدين، وغيرها شعار النفاق؛ لذلك لما فتحوا الأمصار، سارعوا إلى تعليم أهلها العربية حتى سرت سريان النور في الظلام، رغم صعوبة ذلك ومشقته»[40]. وقال شيخ الإسلام: «اعلم أنّ اعتياد اللغة يؤثر في العقلِ والخلقِ والدينِ تأثيراً قويّاً بيّناً، ويؤثر - أيضاً - في مشابهةِ صدرِ هذه الأمّةِ من الصحابةِ والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقلَ والدينَ والخلق»[41].

2 - الأعياد:

تعد الأعياد الجانب الأكثر وضوحاً في هوية الأمم، والأقدس غالباً في معتقداتها وقيمها وثقافتها بعموم.

وقد أطال شيخ الإسلام في مسألة الأعياد، بل إنه أشار في أول الكتاب إلى أنها هي سبب تأليفه للكتاب، وأن غيرها جاء تابعًا لها، مؤكداً أن الأعياد من جملة الشرائع والمناسك، كالقبلة، والصلاة، والصيام، وليست مجرد عادات، وأن التشبه والتقليد فيها للكافرين أشد وأخطر، وأن تشريع أعيادٍ لم يشرعها الله يكون حكمًا بغير ما أنزل الله، وقولًا على الله بغير علم، وافتراء عليه، وابتداعًا في دينه. ولا عجب أن يطيل الشيخ في هذه المسألة؛ فالأعياد كانت، ومازالت، محل اهتمام الدارسين في كل الشعوب ومحل شغفهم وسؤالهم؛ فلكل عيدٍ مناسبة، ولكل مناسبة قصة، وهي في غالب أحوالها ترتبط بتاريخ، ومعتقد، وسبب، ويقام فيها مظاهر خاصة من اللعب والفرح والتوسعة وسائر المباهج المعروفة في كل أمة بحسبها، مما يدل على أن قضية الأعياد هي قضية انتماء تاريخي وثقافي قبل أن تكون مجرد مناسبات عابرة.

وقد تناول الشيخ الأعياد من عدة وجوه مبتدئاً بتحديد معنى العيد، وضبطه بكونه ما يعود عاماً بعد عام، ويكون فيه اجتماع وأعمال خاصة من العبادات أو العادات[42]. ثم ذكر أنواعاً من المشاركة الممنوعة في أعياد الكفار منها:

1 - تهنئتهم بأعيادهم.

2 - إهداؤهم أو قبول هداياهم فيها.

3 - شهود احتفالاتهم، وخصها بعضهم بما يكون في الكنائس والبيَع، أما شهود ما في الأسواق فلا بأس.

4 - دخول كنائسهم يوم عيدهم.

5 - الأكل من طعام عيدهم أو صنعه لهم.

(40) مقدمة المحقق ص (44).

(41) ص (207).

(42) ص (417).

علة النهي عن مشاركة الكفار في أعيادهم:

أبدع شيخ الإسلام في بيان علة النهي عن مشاركة الكفار في الأعياد؛ فإنه ذكر أنها غالباً ما تكون مستحسنةً للناس، ويجتمعون على ما فيها من الملاذ والمطاعم والمشارب ويبتهجون، وذلك الحال بلا شك مفضٍ إلى نوع موافقة، بل ربما استحسان لما تشتمل عليه من باطلٍ قليلاً كان أو كثيرا، وهذا الأمر مما تدل عليه الوقائع، ويصدقه الواقع. كما أشار الشيخ إلى لطيفة دقيقة جليلة في طبيعة النفس البشرية، وهي ما نصّ عليه بقوله: «ومن شأن الجسد إذا كان جائعًا، فأخذ من طعام حاجته؛ استغنى عن طعام آخر، حتى لا يأكله إن أكل منه إلا بكراهة، وتجشم، وربما ضره أكله، أو لم ينتفع به، ولم يكن هو المغذي له الذي يقيم بدنه، فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته، قلّت رغبته في المشروع وانتفاعه به، بقدر ما اعتاض من غيره، بخلاف من صرف نهمته وهمته إلى المشروع، فإنه تعظم محبته له ومنفعته به، ويتم دينه، ويكمل إسلامه؛ ولذا تجد من أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه؛ تنقص رغبته في سماع القرآن، حتى ربما كرهه، ومن أكثر من السفر إلى زيارات المشاهد ونحوها لا يبقى لحج البيت الحرام في قلبه من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة، ومن أدمن على أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم، لا يبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الموقع، ومن أدمن قصص الملوك وسيرهم؛ لا يبقى لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذاك الاهتمام، ونظير هذا كثير»[43]. ثم أنزل هذا الوصف على الأعياد، فقال: «إذا تبين هذا فلا يخفى ما جعل الله في القلوب من التشوق إلى العيد والسرور به والاهتمام بأمره، اتفاقا واجتماعات وراحة، ولذة وسرورا، وكل ذلك يوجب تعظيمه لتعلق الأغراض به؛ فلهذا جاءت الشريعة في العيد، بإعلان ذكر الله تعالى فيه، حتى جعل فيه من التكبير في صلاته وخطبته وغير ذلك ما ليس في سائر الصلوات، وأقامت فيه من تعظيم الله وتنزيل الرحمة فيه - خصوصا العيد الأكبر - ما فيه صلاح الخلق،... فصار ما وُسِّع على النفوس فيه من العادات الطبيعية عوناً على انتفاعها بما خص به من العبادات الشرعية؛ فإذا أعطيت النفوس في غير ذلك اليوم حظها، أو بعضه الذي يكون في عيد الله؛ فترت عن الرغبة في عيد الله، وزال ما كان له عندها من المحبة والتعظيم، فنقص بسبب ذلك تأثير العمل الصالح فيه، فخسرت النفوس خسرانا مبينا»[44].

وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام واقعٌ في الأمة اليوم؛ فإن كثيراً من أبناء المسلمين قد زهد في أعياد الإسلام؛ لكثرة ما يرى، ويسمع، ويشهد من أعياد

(43) ص (458).

(44) ص (460).

الكافرين، ولعل ذلك - أيضاً - يعود إلى كثرة أيام أعيادهم مع ما فيها من اللهو والطقوس الخاصة التي يجعلونها رموزاً في كل شؤونهم في بيوتهم وشوارعهم وملابسهم، وألوان الحلوى وأنواع الطعام، فلم يبق لما شرع الله في أعياد المسلمين من توسعة مزية على هذه الأعياد، بل لا تكاد تقاربها في ما يقومون به فيها من أنواع البهجة المختلفة، وإعلانهم لذلك في جميع وسائل الإعلام والتي تصل إلى جميع بلاد المسلمين.

حريم العيد:

من المسائل التي تحدث عنها شيخ الإسلام - بشكل خاص - هي مسألة «حريم العيد» وقد عرفه بقوله: «هو ما قبله وما بعده من الأيام التي يحدثون فيها أشياء لأجله، أو ما حوله من الأمكنة التي يحدث فيها أشياء لأجله أو ما يحدث بسبب أعماله من الأعمال، حكمها حكمه، فلا يفعل شيء من ذلك؛ فإن بعض الناس قد يمتنع من إحداث أشياء في أيام عيدهم، كيوم الخميس والميلاد، ويقول لعياله: إنما أصنع لكم هذا في الأسبوع أو الشهر الآخر. وإنما المحرك له على إحداث ذلك وجود عيدهم، ولولا هو لم يقتضوا ذلك، فهذا من مقتضيات المشابهة»[45].

وهذا المعنى المتعلق بحريم العيد يقتضي أن العيد في حقيقته ليس يوماً واحداً ولا فعلاً واحداً، بل هو مناسبة خاصة تقتضي انشغالاً خاصاً للقلب والجوارح، لا يجوز المشاركة فيها بقليل ولا كثير، ولا قبل ولا بعد، وهذا هو مقتضى المخالفة التي تعني المفارقة من كل الوجوه، كما قال تعالى: ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: 159).

ولعل هذا الملحظ النفيس يشير إلى خطأ كثير من الناس اليوم في اعتقاد جواز الاحتفال بأعياد بدعية بعد أن يخالفوا تاريخ يومها فقط، كالاحتفال بالمولد قبل أو بعد ذلك اليوم، أو الإسراء والمعراج، وحتى أعياد المناسبات غير الدينية كعيد الأم ونحوها. إن مسألة حريم العيد هذه لدى شيخ الإسلام فيها ملمحٌ للإعجاز في تشريعات الإسلام؛ من حيث تربية الفرد والمجتمع على الجدية، ومقتضى العبادة الجامع، وأن ذلك يتنافى مع سلاسل الأعياد التي لا تنتهي؛ لاختلاف مشارب البشر، وتنوع اهتماماتهم، وتنافسهم في الابتداع، وإحداث الأعياد المتنوعة، لما يعقل وما لا يعقل، ولما هب ودب، ولمن مات وولد، وربط هذه الظاهرة بذوبان الذاتية والخصوصية، وضياع الهوية والتميز.

3 - **الرموز والشعارات:**

ترتبط كثيرٌ من المعتقدات والأفكار والأعياد والمناسبات بالشعارات الرمزية، وتصبح هذه الرموز مع الوقت أكثر دلالة على الشيء من اسمه الحقيقي أو وصفه الذاتي. ومسألة الرمزية من المسائل التي نبه عليها شيخ

(45) ص (468).

الإسلام في هذا الكتاب؛ إذ إنها تمثل دلالة واضحة على هوية المرء والمجتمع والأمة بأكملها. وقد نبه على رمزية الأزياء، ورمزية بعض طقوس الأعياد، والتي نجدها قد استمرت في أعياد النصارى إلى يومنا هذا وتلقّاها عنهم كثيرٌ من المسلمين، ومن الرموز التي نص عليها الشيخ ما يلي[46]:

1 – كتابة الأوراق وإلصاقها بالأبواب.

2 – صبغ البيض وتلوينه.

3 – اللعب بالخيول في الشوارع.

4 – إيقاد الشموع لميلاد المسيح.

5 – النواقيس والصلبان والرايات والألوية.

6 – أكواب الخمر وآنيته.

7 – التماثيل المجسمة.

8 – الأطعمة المخصصة لبعض الأعياد.

ولا شك أن استخدام لغة الرموز مما يسهل انتشار أي ثقافة، ويكسبها سرعة انتقال من مجتمع لمجتمع آخر؛ وذلك لسهولة التقليد فيها. كما يميل الكثير من الناس اليوم إلى فصل الصورة المادية عن المعنى والإشارة التي تتضمنها، ولهذا نجد من يقتني نوعاً من الشمعدان أو الشموع أو الزينة الخاصة بأعياد الكفار دون أن يفهم معناها، أو يميل إلى اكتشاف ما فيها من مضامين عقدية وثقافية خاصة، وإن كان هذا لا يمكن أن يفرغها من دلالاتها.

(46) ص (471) وما بعدها.

الخاتمة

تعدّ قضية الهوية من أهمّ القضايا في عصر العولمة والغزو الثقافي، إذ تم اختراق الكثير من الخصوصية الثقافية للأمم والشعوب عبر تيار العولمة والغزو العسكري والثقافي، وقد تناول الكثيرون هذه الظاهرة بالنقاش والتحليل، وقد رأيتُ أنه من المهم عرض ما يمكن أن يكون مرجعاً ومنطلقاً رئيساً لتأصيل معنى الهوية من مؤلفات السلف من علماء هذه الأمة الذين اهتموا ببيان الهوية الإسلامية الصحيحة وتأصيلها والدفاع عنها وفي مقدمتهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» وقد خلصت إلى النتائج التالية:

أولاً: تناول الشيخ موضوع الهوية، والتميز من خلال قاعدة المخالفة، واستدل عليها بعدد كبير من الأدلة، وضبطها بعدد من الضوابط لا تخرج عن الضوابط السبعة التالية:

الضابط الأول: أن المخالفة مقصودة لذاتها، وهي أصلٌ في الدين ومعنى الصراط المستقيم.

الضابط الثاني: أن الإخبار بوقوع التشبه قدراً لا يعارض وجوب التعبد بالمخالفة.

الضابط الثالث: أن المخالفة لا تختص بالباطن دون الظاهر.

الضابط الرابع: أن المخالفة لا تختص بأهل

الكتاب.

الضابط الخامس: أن المخالفة لا تعني العلو والاستكبار والفخر الجاهلي.

الضابط السادس: أن المخالفة لا تعني العنت والمشقة ولا التشديد على النفس.

الضابط السابع: أن المخالفة دائرةٌ بين الوجوب والاستحباب.

ثانياً: حدد شيخ الإسلام ابن تيمية مظاهر الهوية بدقة متناهية، والتي تشمل المظاهر الفكرية المتمثلة في المعتقدات والعبادات. والمظاهر الاجتماعية المتمثلة في الهيئات والعادات. والمظاهر الحضارية المتمثلة في اللغة والأعياد والرموز والشعارات.

أهم التوصيات:

1 – ضرورة تقديم قراءة ثقافية لكتب السلف، وتقديم تحليل ثقافي يبرز ما كان لهم من قصب السبق في تأصيله والعناية به.

2 – تقريب كتب السلف للجيل الحالي المنجذب للقراءات الفكرية تلبيةً لحاجتهم للتأصيل وخدمةً للعلم والفكر والثقافة والتراث الإسلامي بعموم.

***

قائمة المصادر والمراجع

اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم. ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم. تحقيق: د. ناصر العقل، ط1، الرياض: دار الفضيلة، د.ت.

الاتصال والهيمنة الثقافية. شيلر، هربرت. ترجمة: وجيه سمعان، مراجعة: د. مختار التهامي، د.ط، القاهرة: د.م، 2007م.

البرهان في علوم القرآن. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. تحقيق: د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي، والشيخ جمال حمدي الذهبي، والشيخ إبراهيم عبد الله الكردي، ط1، بيروت: دار المعرفة، 1410هـ.

اختراق الثقافة وتبديد الهوية، الأمن القومي في عصر العولمة. ليلة، علي. ط1، مصر: مكتبة الأنجلو، 2012م.

البداية والنهاية. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التركي، د.ط، د.م: عالم الكتب، 1424هـ.

التعريفات. الجرجاني، عبد القاهر. ضبطه وصححه: جماعة من العلماء، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ.

الموسوعة الفلسفية العربية. زيادة، معن زيادة، ومجموعة من المؤلفين. ط1، د.م: معهد الإنماء العربي، 1988م.

لسان العرب. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي. ط3، بيروت: دار صادر، 1414 هـ.

منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية. ابن تيمية، تقي الدين أحمد. تحقيق: محمد رشاد سالم، ط1، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1406هـ.

هويتنا الثقافية في خضم تحولات العولمة من الاختراق إلى المهانة. نميرات، عبدالعزيز. مجلة الكلمة، العدد (21)، 1998م.

***